اللغة بين الفهم والقصدية – نحو مسارات هرمينوطيقية–

الأستاذة: علجية مودع
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

أنطلق في هذه الدراسة من مقولة الفيلسوف الناقد "هانز جورج غادامير":« **التأويـــــل المعتمد على اللغـــــة هو الشكل التأويـــــلي بامتياز.**»[1]

تعدّ قضية التعبير اللغوي من أبرز القضايا ارتباطا بالفهم والقصدية هذه الأخيرة التي تعد دعامة أساسية في المقاربة الهرمينوطيقية لارتباطها الوثيق بالمعنى خاصة في تعريفاتها اللغوية وفق ما ورد في لسان العرب:« عنيت فلانا عنيا قصدته، ومن تعني بقولك أي ما تقصد .. ومعنى كل كلام ومعناته ومعنيته: مقصده.»[2]

فانطلاقا من هذه الإشارة المعجمية يظهر أن المعنى هو المراد والقصد وهذا ما أكده " الشاطبي" الذي عقد فصلا تحت عنوان" المعاني هي المقصودة... ومنها : أن يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها. وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية؛ فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود.[3]

وليس هذا فقط؛ بل لكي يصل المعنى إلى المتلقي لابد أن تتوفر شروط لغوية وتواصلية مضبوطة وهذا ما يخص به "يول" القصدية قائلا: «.. القصدية ليست ما يعلنه الكاتب صراحة أو ضمنا وإنما ما يقصد من خلال استعماله للكلمات.»[4]

وهذا ما من شأنه أن يحقق التفاعل بين أقطاب العملية التواصلية فبناء على تفاعل القارئ بما قصده المؤلف يفتح المجال لتعدد المعنى واختلافه باختلاف القراء ومن ثمة يصبح الخطاب مجالا تأويليا وقرائيا بامتياز.

و لهذا كان لزاما البحث في ضوابط التأويل، وهي في مجملها لا تخرج عن كونها ضوابط نصية أو سياقية وأهمها:

1/– أن يكون المعنى مما يحتمله اللفظ.

2/– أن يكون على التأويل دليل صحيح يدل على صرف اللفظ عن ظاهره ومعيار صحته أن يكون موافقا لوضع اللغة أو عرف الاستعمال.

3/– السياق: وهي مجمل المعطيات المادية والمعنوية للمنتج، وكذا العناصر الخارجية عن النص، الزمان والمكان والمؤثرات اللغوية والثقافية والموسوعية التي لها دور في توجيه الدلالة وبلوغ المعنى.

4/– المقاصد: إذا كنّا متيقنين من مقاصد صاحبه بناء على أدلة واضحة وأبانت البنيات النصية عن معنى محدد سهل علينا التخريج الدلالي في حدود التي يظهر انسجامها وتوافقهما، فهما متساندان ومتعاونان على المعنى.[5]

فالتأويل النص يتم انطلاقا من مقاصد مبنية مسبقا، فلا يأتي التأويل إلاّ معتمدا عليها، وعليه، فإن المقصدية هي الموجه الوحيد لدلالة النص، فهي تتوسط عمليتي الابلاغ والفهم، وهذا ما أكده "ابن عربي" في فتوحاته أثناء حديثه عن منزلة الفهم والعلم من واقع المعنى أو القصد قائلا:« .. إنّ الإنسان ينطق بالكلام يريد به معنى واحدا مثلا من المعاني التي يتضمنها ذلك الكلام، فإذا فُسّر بغير مقصود المتكلم من تلك المعاني فإنما فَسّر المفسّر بعض ما تعطيه قوة اللفظ–العبارة– وإن كان لم يصب مقصود المتكلم.»[6]

وعليه فإنّ ما ينم عليه بعد النص أنّ المتكلم حين يتلفظ بحديثه اتجاه المتلقي المستمع، فإنه لا مناص في حديثه من قصديتين هما: قصدية موجهة أساسا للمتلقي الذي يتلقى الخطاب، والثانية ذلك المعنى الخاص بقصدية المتكلم الذي يظل مصاحبا لهذه الذات وهي تتصف بصفة الصدارة.

فالقصدية عنده في الحدث الكلامي تتوسط موقع الفهم والعلم، فإن استطاع المتلقي أن يدرك أبعاد قصدية المتكلم وأن يفسرها تفسيرا يتماشى مع ما هو في بطون المتكلم سمي ذلك عند "ابن عربي" بالعلم، ومن ثمة سيكون التواصل اللغوي في واقع الخطاب قائما على نية التفاعل بين الفهم والعلم.

وبالتالي فارتباط النية بالمقصد هو ما أشار إليه "هوسرل" تحت مصطلح "الوعي" قائلا: « كلمة قصدية لا تدل على شيء آخر غير هذه الخاصية الأساسية والعامة التي

يختص بها الشعور بأن يكون شعور بشيء ما وأن يحمل في ذاته هو، بوصفه أنا أفكر، موضوعه المفكر فيه.»[7]، وبالتالي فالقصدية شديدة الارتباط بالوعي فالوعي هو مانح المعنى لكل دلالة اللغة وإنّ القاصد يعني بقدر ما يعي.

إن الممارسة التأويلية تقوم على مبدأ التفاعل بين أقطاب العملية الإبداعية؛ المؤلف والنص والقارئ هذا الأخير الذي يعتبر الحكم الوحيد في الوصول إلى حقيقة النص وهذا ما أكّده "أمبرتو إيكو" في كتابه "حدود التأويل" إذ ميز بين ثلاث مقاصد:

أ/- مقصدية المؤلف l'intentio auctoris

ب/- مقصدية النص l'intentio operis

ج/- مقصدية القارئ l'intentio lectoris[8]

كما يجعل من مادة النص الأولية "اللغة" المنطلق الأول في العملية التأويلية للوصول إلى كنه المنجز الإبداعي، ولكن لا يجعلها المنطلق الوحيد فبتواشجها مع السياق يستطيع جمهور القراء إنتاج نص جديد يكون نتيجة تعاقد بين كفاءة القارئ المعرفية ونمط القراءة التي يسلم بها النص.

وهكذا « فأثناء التفاعل بين هذه القرائية والنص، لا يتم التفكير في مقاصد الكاتب، ولكن في مقصدية النص أو قصد الكاتب النموذجي الذي نحاول معرفته انطلاقا من الإستراتيجية النصية ، وهذه الأخيرة ليست دائما كافية للوصول إلى ما يمكن اعتباره قصد قصد النص الأدبي؛ فقد لا نهتدي من خلال البنية (اللغة) أو المؤثرات الداخلية إلى المعنى فتظل مواطن اللاّتحديد أو الشك حاضرة فيه، وتظل ثغراته في حاجة إلى ملء.»[9]

كما يضيف إيكو بأنّ بناء إستراتيجية نصية يتطلب الوقوف على سلسلة من القدرات التي يعتمدها القارئ(النموذجي) والذي يشارك تأويليا في ترهين النص بالطريقة نفسها التي خضع توليديا، وذلك من خلال اختيارات لغوية وإطار موسوعي وإرث معجمي وأسلوبي، وهذا ما يسميه إيكو مسارات التأويل ومنها: المعجم فلابد من الارتكاز على المادة المعجمية التي يتكون منها النص، وتحديد الدلالات الأصلية للكلمات ومراعاة القواعد الرمزية والبلاغية والأسلوبية، فالمؤول يجب أن يكون على علم بالاستعمالات البلاغية والأسلوبية ذات الدلالات القارة أو المعروفة و المتداولة.[10]

كما نجد "فرانسوا راستيي" في كتابه "على الدلالة التأويلي" يشترك كثيرا مع ايكو في مسألة المسارات التأويلية مميزا بين نمطين من التأويل:

أ/– التأويل بالمقومات الجوهرية ويسميه l'interprétation intrinsèque وتقوم على التحليل والتكثيف والاحتفاظ .

ب/– التأويل بالمقومات السياقية الخارجية ويسميه l'interprétation extrinsèque و تقوم على آليات النقل والاستبدال والإهمال والإدماج.[11]

كما يتم بناء المعنى من خلال اشتغال أفعال التأويل الداخلي مع التأويل الخارجي هذا الأخير الذي يعطينا قراءة وصفية بحتة، إذ يركز على استعمالات التراكيب والتغير الدلالي الذي يطرأ عليها في حين يعطينا التأويل الداخلي قراءة إنتاجية.

استنادا إلى طرح "راستيي" فمعنى اللفظ ليس معبرا سهلا ومنيعا للوصول إلى القصد، فاللغة لا تنفصل عن الخبرات الجماعية والنفسية والاجتماعية والجمالية للناطقين بها، ومن هنا لاحظ "دي سوسير" أنّ كل كلمة تستدعي كل ما هو قابل لأن يرتبط بها بشكل أو بآخر فاستعمالنا للكلمة في كل حالة يدفعنا إلى استحضار استعمالاتها السابقة في سياقات منتهية، إننا نبني من خلالها المعنى وفي ذاكرتنا مجموعة من الدلالات التي سبق أن ارتبطت بها في حالات ووضعيات سابقة، يمكن تسميتها **دلالات إلصاقيـــة** هي التي توجه الفهم نحو مقصد محتمل.

إن الفهم هو التفاعل بين اللغة من حيث هي نسق صوري، وبين الخطاب من حيث هو حدث تاريخي وسنحاول تقديم نموذج نبين فيه أهمية اللغة في التأويل خاصة الرمزية منها وأدوار السياق التلفظي في عملية التواصل بين طرفين يشتركان في الدلالات الرمزية، داخل تواصل محكوم بشروط خاصة لمحاولة فهم الظاهرة التأويلية في جوانبها الرمزية الخادعة.

ورد في كتاب الحيوان للجاحظ قول الأصمعي: « تزوج رجل من امرأة فساق مهرها ثلاثين شاة، وبعث بها رسولا، وبعث بزق خمر، عمل الرسول فذبح شاة في الطريق فأكلها، وشرب بغض الزّق، فلما أتى المرأة نظرت إلى تسع وعشرين ورأت الزّق ناقصا، فعلمت أن الرجل لا يبعث إلا بثلاثين وزق مملوء، فقالت للرسول: قل لصاحبك إنّ سحيما قد رثم، وإن رسولك جاءنا في المحاق، فلما أتاه الرسول بالرسالة؛ قال: يا عدو الله أكلت من الثلاثين شاة، وشربت من رأس الزق فاعترف بذلك.»[12]

تحتوي هذه الواقعة على تجربة تأويلية فريدة أساسها اللغة وبالأخص على جملتين مركزيتين تشكلان القلب الرمزي النابض وهما: (إنّ سحيما قد رثم)، (إنّ رسولك

جاءنا في المحاق)، وسنحاول الاعتماد على التقابلات التالية لإبراز اشتغال مستويات التأويل (الزوج/ الزوجة)، (المرسل/ المرسل إليه)، (الذهاب/ الإياب)، (الشياه/ الزّق)، (الأكل/ الشرب)، (الائتمان/ الغدر)، (الخديعة/ الانكشاف)، (الخديعة المادية/ الخديعة المعنوية)، (ظاهر الرسالة/ باطن الرسالة)، (الزيف/ الحقيقة)، (العدد التام/ العدد الناقص)، (اللغة المباشرة/ اللغة الرمزية)، (الرسالة/ السياق)، التشفير/ فك التشفير).

إنّ شكل الخطاب نابع عن مقصدية صاحبه ، هناك دوما تلازم بين أهداف المنتج من موضوعه وبين الشكل الذي يتخذه الخطاب لنقل الرسالة، فما يختص بالشكل الخارجي يحتاج إلى تأويل وصفي وما يختص بالشكل الجوهري أو المقصد هو ما يحتاج إلى تأويل جوهري منتج، فلما اتخذت اللغة فناعا رمزيا تواصليا المراد منه تحقق المقصد والمراد هو ما سماه "ايكو" بالسيناريوهات المحقق لمقصدية المرسلة، فلو كانت اللغة واضحة لما حدث تأويل لأن الرسول سوف يفهم مباشرة ويمكن أن يغير الرسالة وبالتالي عمدت الزوجة إلى تكثيف لغة الرسالة بحيث يستطيع الزوج تأويلها بالشكل الذي يظهر مقاصدها.

واستنادا لما تقدم فاللغة تظل أداة طيعة عند مستعمليها تقبل إخضاعها لتسنين خاص، ومن ثمّ فهي قارة على خداع حامل الرسالة اللغوية ومتلقيها، عندما لا يتمكنان من إدراك مقاصدها الخفية.

---

1 H.G.Gadamer, Méthode et Vérité, seuil, Paris, 1976, P246

2 ابن منظور: لسان العرب م.م، مج15، ص 105-106

3 ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجية الخطاب(مقاربة تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص195

4 محمد بازي: التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، 52

5 ينظر، المرجع نفسه، ص 59-60

6 ابن عربي : الفتوحات المكية، ج1، ص 135

7 اسماعيل مهنانة: من القصد إلى الفهم (نشأة التأويل في الفينومينولوجيا وهرمينوطيقا الدازاين)، الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 106.

8 U. Eco, les limites de l'interprétation, Tra par Myriam Bouzaher, Bernard Grasset,Paris, 1991, P13

9 محمد بازي: التأويلية العربية، ص 61

10 U.Eco, lecto in fabula, Tra par Myriam Bouzaher, Grasset et Fasquelle,Paris, 1985 , P 98

11 François Rastier, Sémantique Interprétative, Ed PUF, Paris, 1987, P 231

12 الجاحظ: الحيوان، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج 3، ص 63